الإخلاص

(اللمعة العشرون) من كليات رسائل النور

لبديع الزمان سعيد النورسي

الترجمة إلى العربية: إحسان قاسم الصالحي

بسم الله الرحمن الرحيم

(إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين * ألا لله الدين الخالص)

وقال الرسول الأعظم ﷺ: (هلك الناس إلا العالمون وهلك العالمون إلا العاملون وهلك العاملون إلا المخلصون والمخلصون على خطر عظيم) أو كما قال.

تدلنا هذه الآية الكريمة والحديث الشريف معاً على مدى أهمية الإخلاص في الإسلام، ومدى عظمته أساساً تستند إليه أمور الدين. فمن بين النكت التي لا حصر لها لمبحث (الإخلاص) نبين باختصار خمس نقاط فقط.

النقطة الأولى: سؤال مهم ومثير للدهشة:

لماذا يختلف أصحاب الدين والعلماء وأرباب الطرق الصوفية وهم أهل حق ورفاق ووئام بالتنافس والتزاحم، في حين يتفق أهل الدنيا والغفلة بل أهل الضلالة والنفاق من دون مزاحمة ولا حسد فيما بينهم. مع أن الاتفاق هو من شأن أهل الوفاق والوئام، والخلاف ملازم لأهل النفاق والشقاق.

فكيف استبدل الحق والباطل مكانهما، فأصبح الحق بجانب هؤلاء والباطل بجانب أولئك؟

الجواب سنبين سبعة من الأسباب العديدة لهذه الحالة المؤلمة التي تقض مضجع الغيارى الشهمين.

السبب الأول:

إن اختلاف أهل الحق غير نابع من فقدان الحقيقة، كما أن اتفاق أهل الغفلة ليس نابعاً من ركونهم إلى الحقيقة، بل إن وظائف أهل الدنيا والسياسة والمثقفين وأمثالهم من طبقات المجتمع قد تعينت وتميزت. فلكل طائفة وجماعة وجمعية مهمة خاصة تنشغل بها، وما ينالون من أجرة مادية – لقاء خدماتهم ولإدامة معيشتهم – هي كذلك متميزة ومتعينة، كما أن ما يكسبونه من أجرة معنوية كحب الجاه وذيوع الصيت والشهرة، هي الأخرى متعينة ومخصصة ومتميزة[1]. فليس هناك أذن ما يولد منافسة أو مزاحمة أو حسداً فيما بينهم. وليس هناك ما يوجب المناقشة والجدال، لذا تراهم يتمكون من الاتفاق مهما سلكوا من طرق الفساد.

أما أهل الدين وأصحاب العلم وأرباب الطرق الصوفية فإن وظيفة كل منهم متوجهة إلى الجميع، وأن أجرتهم العاجلة غير متعينة وغير متخصصة، كما أن حظهم من المقام الاجتماعي وتوجه الناس إليهم والرضى عنهم لم يتخصص أيضاً.

فهناك مرشحون كثيرون لمقام واحد وقد تمتد أيد كثيرة إلى أية أجرة – مادية كانت أو معنوية – ومن هنا تنشأ المزاحمة والمنافسة والحسد والغيرة. فيتبدل الوفاق نفاقاً والاتفاق اختلافاً وتفرقاً.

فلا يشفى هذا المرض العضال إلا مرهم الإخلاص الناجع، أي:

أن ينال المرء شرف امتثال الآية الكريمة: (إن أجري إلا على الله) بإيثار الحق والهدى على اتباع النفس والهوى، وبترجيح الحق على أثرة النفس، وأن يحصل له امتثال بالآية الكريمة (وما

---

[1] تحذير: إن إقبال الناس وتوجههم لا يطلب، بل يوهب، ولو حصل الإقبال فلا يسر به وإذا ما ارتاح المرء لتوجه الناس إليه فقد ضيع الإخلاص ووقع في الرياء. أما التطلع إلى نيل الشهرة والصيت التي تتضمن توجه الناس والرغبة في إقبالهم فهو ليس بأجرة ولا ثواب، بل عتاب نابعان من فقدان الإخلاص. نعم ‘ن توجه الناس وإقبالهم لا يراد، لأن ما فيه من لذة جزئية تضر بالإخلاص الذي هو روح الأعمال الصالحة، ثم إنه لا يستمر إلا إلى حد باب القبر. فضلاً عن أنه يكتسب ما وراء القبر صورة اليمة من عذاب القبر، فلا يرغب في توجه الناس ونيل رضاهم إذن، بل يلزم الفرار والتهيب منه. فليصغ إلى هذا عباد الشهرة والمتلهفون على كسب رضى الناس.

على الرسول إلا البلاغ المبين) باستغنائه عن الأجر المادي والمعنوي المقبلين من الناس[٢] مدركاً أن استحسان الناس كلامه وحسن تأثيره فيهم ونيل توجههم إليه هو مما يتولاه الله سبحانه وتعالى ومن إحسانه وفضله وحده، وليس داخلاً ضمن وظيفته التي هي منحصرة في التبليغ فحسب. بل لا يلزمه ذلك ولا هو مكلف به أصلاً.

فمن وفقه الله إلى ما ذكر آنفاً يجد لذة الإخلاص، وإلا يفوته الخير الكثير.

السبب الثاني:

إن اتفاق أهل الضلالة نابع من ذلتهم بينما اختلاف أهل الهداية نابع من عزتهم، إذ لما كان أهل الدنيا والضلالة الغافلون لا يستندون إلى الحق والحقيقة فهم ضعفاء وأذلاء يشعرون بحاجة ماسة إلى اكتساب القوة ويتشبثون بشدة إلى معاونة الآخرين والاتفاق معهم، ويحرصون على هذا الاتفاق ولو كان مسلكهم ضلالة، فكأنما يعملون حقاً في تساندهم على الباطل، ويخلصون في ضلالتهم، ويبدون ثباتاً وإصراراً على إلحادهم، ويتفقون في نفاقهم، فلأجل هذا يوفقون في عملهم، لأن الإخلاص التام ولو كان في الشر لا يذهب سدى ولا يكون دون نتيجة. فما من سائل يسأل بإخلاص أمراً إلا قضاه الله له.

أما أهل الهداية والدين وأصحاب العلم والطريقة فلأنهم يستندون إلى الحق والحقيقة، ولأن كلاً منهم – أثناء سيره في طريق الحق لا يرجو إلا رضى ربه الكريم ويطمئن إليه كل الاطمئنان، وينال عزة معنوية في مسلكه نفسه إذ حالما يشعر بضعف ينيب إلى ربه على ذلك يرى أمامه اختلاف المشارب مع ما هو عليه لذا تراه لا يستشعر بدواعي التعاون مع الآخرين بل لا يتمكن من رؤية جدوى الاتفاق مع مخالفيه ظاهراً ولا يجد في نفسه الحاجة إليه.

---

[٢] لا بد من جعل شيمة الإيثار التي تحلى بها الصحابة الكرام رضوان الله تعالى عليهم ونالوا بها ثناء القرآن الكريم نصب العين، واتخاذها دليلاً ومرشداً، وهذا يعني: تفضيل الآخرين على النفس عند قبول الهدايا والصدقات، وعدم قبول شيء مقابل ما يقوم به المرء من خدمات في سبيل الدين، بل لا يطلبه قلباً. وإذا حصل شيء من هذا القبيل فليعده إحساناً إلهياً محضاً، من دون البقاء تحت منة الناس. إذا ما ينبغي أن يُسأل شيء في الدنيا لقاء خدمات في سبيل الدين، لئلا يضيع الإخلاص. فالأمة وإن كان عليها أن تضمن معاش هؤلاء، كما أنهم يستحقون الزكاة، إلا أن هؤلاء العاملين لا يسألون الناس شيئاً وربما يوهب لهم، حتى لو وهب لهم شيء فلا يأخذونه لقيامهم في خدمة الدين فالأفضل إيثار من هم أهل لها على النفس، والرضى بما قسم الله من رزق والقناعة به، كي يحظى المرء بالثناء القرآني العظيم (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) وعندئذٍ يكون ظافراً بالإخلاص ومنقذاً نفسه من شرور التهلكة الخطيرة.

وإذا ما كان ثمة غرور وأنانية في النفس يتوهم المرء نفسه محقاً ومخالفيه على باطل فيقع الاختلاف والمنافسة بدل الاتفاق والمحبة، وعندها يفوته الإخلاص ويحبط عمله ويكون أثراً بعد عين.

والعلاج الوحيد لهذه الحالة والحيلولة دون رؤية نتيجتها الوخيمة هو في تسعة أمور آتية:

١- العمل الإيجابي البناء، وهو عمل المرء بمقتضى محبته لمسلكه فحسب، من دون أن يرد إلى تفكيره، أو يتدخل في عمله عداء الآخرين أو التهوين من شأنهم، أي لا ينشغل بهم أصلاً.

٢- بل عليه أن يتحرى روابط الوحدة الكثيرة التي نربط المشارب المعروضة في ساحة الإسلام – مهما كان نوعها – والتي ستكون منابع رحمة ووسائل أخوة واتفاق فيما بينها.

٣- واتخاذ دستور الانصاف دليلاً ومرشداً، وهو أن صاحب كل مسلك حق يستطيع القول: (إن مسلكي حق وهو أفضل وأجمل) من دون أن يتدخل في أمر مسالك الآخرين، ولكن لا يجوز له أن يقول: (الحق هو مسكلي فحسب) أو (إن الحسن والجمال في مسكلي وحده) الذي يقضي على بطلان المسالك الأخرى وفسادها.

٤- العلم بأن الاتفاق مع أهل الحق هو أحد وسائل التوفيق الإلهي وأحد منابع العزة الإسلامية.

٥- الحفاظ على الحق والعدل بإيجاد شخص معنوي، وذلك بالاتفاق مع أهل الحق للوقوف تجاه أهل الضلالة والباطل الذين اخذوا يغيرون بدهاء شخص معنوي قوي في صورة جماعة على أخل الحق بما يتمتعون به من تساند واتفاق ثم الادراك بأن أية مقاومة فردية – مهما كانت قوية – مغلوبة على أمرها تجاه ذلك الشخص المعنوي للضلالة.

٦- ولأجل انقاذ الحق من صولة الباطل:

٧- ترك غرور النفس وحظوظها.

٨- وترك ما يتصور خطأً أنه من العزة والكرامة.

٩- وترك دواعي الحسد والمنافسة والأحاسيس النفسانية التافهة.

بهذه النقاط التسع يُظفر بالإخلاص ويوفي الإنسان وظيفته حق الوفاء ويؤديها على الوجه المطلوب.[٣]

السبب الثالث:

أن اختلاف أهل الحق ليس ناشئاً عن الوضاعة وفقدان الهمة، كما أن اتفاق أهل الضلالة ليس ناشئاً عن علو الهمة، بل إن اختلاف أهل الهداية نابع من سوء استعمال علو الهمة والإفراط فيه، واتفاق أهل الضلالة مردّه الضعف والعجز الحاصلان من انعدام الهمة.

والذي يسوق أهل الهداية إلى سوء استعمال علو الهمة وبالتالي إلى الاختلاف والغيرة والحسد، إنما هو المبالغة في الحرص على الثواب الأخروي – الذي هو في حد ذاته خصلة ممدوحة – وطلب الاستزادة دون قناعة وحصرها على النفس، وهذا يستدرج الحريص شيئاً فشيئاً حتى يصل به الأمر أن يتخذ وضعاً منافساً إزاء اخيه الحقيقي الذي هو بأمس الحاجة إلى محبته ومعاونته وأخوته والأخذ بيده، كان يقول – مثلاً – لأغنم انا بهذا الثواب، ولأرشد انا هؤلاء الناس وليسمعوا مني وحدي الكلام، وامثالها من طلب المزيد من الثواب لنفسه. او أن يقول: لماذا يذهب تلاميذي إلى فلان وعلان؟ ولماذا لا يبلغ تلاميذي عدد تلاميذه وزيادة؟ فتجد روح الأنانية لديه – بهذا الحوار الداخلي – الفرصة سانحة لترفع رأسها وتبرز، فتسوقه تدريجياً إلى التلوث بصفة مذمومة، تلك هي التطلع إلى حب الجاه، فيفوته الإخلاص وينسد دونه بابه، بينما ينفتح باب الرياء له على مصراعيه.

إن علاج هذا الخطأ الجسيم والجرح البليغ والمرض الروحي العضال هو:

---

[٣] لقد ثبت في الحديث الصحيح أن المتدينين من النصارى سيقفون في آخر الزمان مستندين إلى أهل القرآن للوقوف معاً تجاه عدوهم المشترك الزندقة، لذا فأهل الإيمان والحقيقة في زماننا هذا ليسوا بحاجة إلى الاتفاق الخالص فيما بينهم وحده، بل مدعوون أيضاً إلى الاتفاق حتى مع الروحانيين المتدينين الحقيقيين من النصارى، فيتركوا مؤقتاً كل ما يثير الخلافات والمناقشات دفعاً لعدوهم المشترك الملحد المتعدي.

العلم بأن رضا الله لا ينال إلا بالإخلاص، فرضاه سبحانه وتعالى ليس بكثرة التابعين ولا بإطراء النجاح والتوفيق في الأعمال ذلك لأن تكثير التابعين والتوفيق في العمال هو مما يتولاه الله سبحانه وتعالى بفضله وكرمه، فلا يسأل ولا يطلب بل يؤتيه الله سبحانه من يشاء.

نعم، رُبَّ كلمة واحدة تكون سبباً للنجاة من النار وتصبح موضع رضى الله سبحانه، ورُبَّ إرشاد شخص واحد يكون موضع رضى الله سبحانه وتعالى بقدر إرشاد ألف من الناس. فلا ينبغي أن تؤخذ الكمية كثيراً بنظر الاعتبار.

ثم إن الإخلاص في العمل ونشدان الحق فيه إنما يعرف بصدق الرغبة في إفادة المسلمين عامة أياً كان مصدر الاستفادة ومن أي شخص صدر. وإلا فحصر النظر بأن يؤخذ الدرس والإرشاد مني فقط لأفوز بالثواب الأخروي هو حيلة النفس وخديعة الأنانية.

فيامن يحرص على المزيد من الثواب ولا يقنع بما قام به من أعمال للآخرة! اعلم أن الله سبحانه قد بعث أنبياء كراماً، وما آمن معهم إلا قليل. ومع ذلك نالوا ثواب النبوة العظيم كاملاً غير منقوص. فليس السبق والفضل إذن في كثرة التابعين المؤمنين، وإنما في نيل شرف رضى الله سبحانه. فمن أنت أيها الحريص حتى ترغب إن يسمعك الناس كلهم، وتتغافل عن واجبك وتحاول أن تتدخل في تدبير الله وتقديره؟ اعلم واجبك ولا تحاول أن تتدخل في تدبير الله وتقديره؟ اعلم أن تصديق الناس كلامك وقبولهم دعوتك وتجمعهم حولك إنما هو من فضل الله يؤتيه من يشاء، فلا تشغل نفسك فيما يخصه سبحانه من تقدير وتدبير، بل اجمع همك في القيام بما أنيط بك من واجب.

ثم إن الإصغاء إلى الحق والحقيقة، ونوال المتكلم بهما الثواب ليس منحصراً على الجنس البشري وحده، بل لله عباد من ذوي الشعور ومن الروحانيين والملائكة قد ملأوا أركان الكون وعمروها. فإن كنت تريد مزيداً من الثواب الأخروي فاستمسك بالإخلاص واتخذه أساساً لعملك واجعل مرضاة الله وحدها الهدف والغاية في عملك، كي تحيا أفراد تلك الكلمات الطيبة المنوطة من شفتيك منتشرة لتصل إلى أسماع مخلوقات من ذوي المشاعر الذين لا يحصرهم العد، فتنورهم. وتنال بهال الثواب العظيم أضعافاً مضاعفة، ذلك لأنك إذا قلت:

(الحمد لله) مثلاً فستكسب بأمر الله على أثر نطقك بهذه الكلمة ملايين من (الحمد لله) صغيرة وكبيرة في الفضاء. فلقد خلق سبحانه ما لا يعد من الآذان والأسماع تصغي إلى تلك الكلمات الكثيرة الطيبة، حيث لا عبث ولا إسراف في عمل البارئ الحكيم. فإذا ما بعث الإخلاص والنية الصادقة الحياة في تلك الكلمات المنتشرة في ذرات الهواء فستدخل أسماع أولئك الروحانيين لذيذة طيبة كلذة الفاكهة الطيبة، ولكن إذا لم يبعث رضى الله والإخلاص الحياة في تلك الكلمات، فلا تستساغ، بل تنبو عنها الأسماع، ويبقى ثوابه منحصراً فيما تفوّه به الفم.

فليصغ إلى هذا قراء القرآن الكريم الذين يتضايقون من افتقار أصواتهم إلى الجودة والإحسان فيشكون قلة السامعين لهم!.

السبب الرابع:

إن اختلاف أهل الهداية وتحاسدهم ليس كائناً من عدم التفكر في مصيرهم ولا من قصر نظره، كما أن الاتفاق الجاد بين أهل الضلالة ليس كائناً من القلق على المصير ولا من سمو نظرهم وعمق رؤيتهم. بل إن عجز أهل الهداية عن الثبات على الاستقامة في السير، بمزايا ذلك المستوى الرفيع، فيسقطون في هوة الاختلاف رغم كونهم يسترشدون بالعقل والقلب البصيرين للعاقبة ويستفيضون من الحق والحقيقة ولا يميلون مع شهوات النفس بمقتضى أحاسيسهم الكليلة عن رؤية العقبى.

أما أهل الضلالة فبإغراء النفس والهوى وبمقتضى المشاعر الشهوية والأحاسيس الكليلة عن رؤية العقبى والتي تفضل درهما من لذة عاجلة على أرطال من الآجلة، تراهم يتفقون فيما بينهم اتفاقاً جاداً ويجتمعون حول الحصول على منفعة عاجلة ولذة حاضرة.

نعم، إن عبيد النفس السفلة من ذوي القلوب الميتة والهائمين على الشهوات الدنيئة يتحدون ويتفقون فيما بينهم على منافع دنيوية عاجلة.. بينما ينبغي لأهل الهداية الاتفاق الجاد والاتحاد الكامل والتضحية الرصينة فيما بينهم، حيث أنهم يتوجهون بنور العقل وضياء القلب إلى جنى كمالات وثمرات أخروية خالدة آجلة، ولكن لعدم تجردهم من الغرور والكبر والإفراط

والتفريط يضيعون منبعاً عظيماً ثرّاً يمدهم بالقوة، ألا وهو الاتفاق فيضيع بدوره الإخلاص ويتحطم، وتتضعضع الأعمال الأخروية وتذهب سدى، ويصعب الوصول إلى نيل رضى الله سبحانه.

وعلاج هذا المرض الوبيل ودواؤه هو:

الافتخار بصبحة السالكين في منهج الحق، وربط عرى المحبة معهم تطبيقاً للحديث الشريف: (الحب في الله) ثم السير من خلفه وترك شرف الإمامة لهم وترك الإعجاب بالنفس والغرور، بناء على احتمال كون سالك الحق أياً كان هو خير منه وأفضل. وذلك ليسهل نيل الإخلاص. ثم العلم بأن درهماً من عمل خالص لوجه أولى وأرجح من أرطال من أعمال مشوبة لا التطلع إلى تسلم المسؤولية التي قلما تسلم من الأخطار.

بهذه الأمور يعالج هذا المرض ويعافى منه، ويظفر بالخلاص ويكون المؤمن ممن أدى أعماله الأخروية حق أداء.

السبب الخامس:

إن اختلاف أهل الهداية وعدم اتفاقهم ليس نابعاً من ضعفهم، كما أن الاتفاق بين أهل الضلالة ليس نابعاً من قوتهم. بل إن عدم اتفاق أهل الهداية ناجم عن عدم شعورهم بالحاجة إلى القوة، لما يمدهم به إيمانهم الكامل من مرتكز قوي. وإن اتفاق أهل الغفلة والضلالة ناجم عن الضعف والعجز، حيث لا يجدون في وجدانهم مرتكزاً يستندون إلى قوته. فلفرط احتياج الضعفاء إلى الاتفاق تجدهم يتفقون اتفاقاً قوياً، ولضعف شعور الأقوياء بالحاجة إلى الاتفاق فتراها تعيش فرادى، بينما الوعل والماعز الوحشي تعيش قطعاناً خوفاً من الذئاب.

أي إن جمعية الأقوياء والشخص المعنوي الممثل لهم ضعيف.

وهناك إشارة لطيفة إلى هذا السر في نكتة قرآنية ظريفة وهي: أنه أسند الفعل (قال) بصيغة المذكر إلى جماعة الإناث مع كونها مؤنثة مضاعفة وذلك في قوله تعالى: (وقال نسوة في المدينة) بينما جاء الفعل (قالت) بصيغة المؤنث في قوله تعالى: (قالت الأعراب) وهم جماعة

من الذكور، مما تشير إشارة لطيفة إلى أن جماعة النساء الضعيفات اللطيفات تتخاشن وتتقوى وتكسب نوعاً من الرجولة، فاقتضت الحال صيغة المذكر، فجاء فعل (قال) مناسباً وفي غاية الجمال. أما الرجال الأقوياء فلأنهم يعتمدون على قوتهم ولا سيما الأعراب من خاصية الأنوثة من توجس وحذر ولطف ولين فجاءت صيغة التأنيث للفعل ملائمة جداً في قوله تعالى: (قالت الأعراب).

نعم إن الذين ينشدون الحق لا يريدون وجه الحاجة إلى معاونة الآخرين لما يحملون في قلوبهم من إيمان قوي يمدهم بسند عظيم يبعث فيهم التوكل والتسليم، حتى لو احتاجوا إلى الآخرين فلا يتشبثون بهم بقوة. أما الذين جعلوا الدنيا همهم، فلغفلتهم عن قوة استنادهم ومرتكزهم الحقيقي يجدون في أنفسهم الضعف والعجز في إنجاز أمور الدنيا، فيشعرون بحاجة ملحة إلى من يمد لهم يد التعاون فيتفقون معهم اتفاقاً جاداً لا يخلو من تضحية وفداء.

وهكذا فلأن طلاب الحق لا يقدرون قوة الحق الكامنة في الاتفاق ولا يبالون بها ينساقون إلى نتيجة باطلة وخيمة تلك هي الاختلاف، بينما أهل الباطل والضلالة فلأنهم يشعرون _ بسبب ضعفهم وعجزهم _ بما في الاتفاق من قوة عظيمة فقد نالوا أمضى وسيلة توصلهم إلى أهدافهم، تلك هي الاتفاق.

وطريق النجاة من هذا الواقع الباطل الأليم والتخلص من هذا المرض الفتاك، مرض الاختلاف الذي ألم بأهل الحق هو اتخاذ النهي الإلهي في الآية الكريمة:

(ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) واتخاذ الأمر الرباني في الآية الكريمة: (وتعاونوا على البر والتقوى) دستورين للعمل في الحياة الاجتماعية .. ثم العلم بمدى ما يسببه الاختلاف من ضرر بليغ في الإسلام والمسلمين وبمدى ما ييسر السبيل أمام أهل الضلالة ليبسطوا أيديهم على أهل الحق .. ثم الالتحاق بقافلة الإيمان التي تنشد الحق والانخراط في صفوفهم بتضحية وفداء وبشعور نابع من عجز كامل وضعف تام، وذلك مع نكران الذات والنجاة من الرياء ابتغاء الوصول إلى نيل شرف الإخلاص.

السبب السادس:

إن اختلاف أهل الحق ليس ناشئاً من فقدان الشهامة والرجولة ولا من انحطاط الهمة وانعدام الحمية، كما أن الاتفاق الجاد بين الغافلين الضالين الذين يبغون الدنيا في أمورهم ليس ناشئاً من الشهامة والرجولة ولا من الحمية وعلو الهمة. بل إن أهل الحق وجّهوا نظره إلى ثواب الآخرة _ على الأكثر _ فتوزع ما لديهم من حمية وهمة وشهامة إلى تلك المسائل المهمة والكثيرة، ونظراً لكونهم لا يصرفون أكثر وقتهم _ الذي هو رأس مالهم الحقيقي إلى مسألة معينة واحدة، فلا ينعقد اتفاقهم عقداً محكماً مع السالكين في نهك الحق، حيث أن المسائل كثيرة والميدان واسع جداً.

أما الدنيويون الغافلون، فلكونهم يحصرون نظرهم حصراً في الحياة الدنيا _ فهي أكبر همهم ومبلغ علمهم _ تراهم يرتبطون معها بأوثق رباط وبكل ما لديهم من مشاعر وروح وقلب. فأيما شخص يمد يد المساعدة يستمسكون بها بقوة، فهم يحصرون وقتهم الثمين جداً في قضايا دنيوية لا تساوي شيئاً في الحقيقة لدى أهل الحق. مثلهم في هذا كمثل ذلك الصائغ اليهودي المجنون الذي اشترى قطعاً زجاجية تافهة بأثمان الأحجار الكريمة الباهظة. فابتياع الشيء بأثمان باهظة، وصرف المشاعر كلها نحوه يؤدي حتماً إلى النجاح والتوفيق ولو كان في طريق باطل، لان فيه إخلاصاً جاداً. ومن هنا يتغلب أهل الباطل على أهل الحق، فيفقد أهل الحق الإخلاص ويسقطون في مهاوي الذل والتصنع والرياء، ويضطرون إلى التملق والتزلف إلى أرباب الدنيا المحرومين من كل معاني الشهامة والهمة والغيرة.

فيا أهل الحق! ويا أهل الشريعة والحقيقة والطريقة! ويا من تنشدون الحق لأجل الحق! اسعوا في دفع هذا المرض الرهيب، مرض الاختلاف بتأدبكم بالأدب الفرقاني العظيم ألا وهو: (وإذا مروا باللغو مروا كراماً) فاعفوا عن هفوات إخوانكم وغضوا أبصاركم عن عيوب بعضكم البعض الآخر، ودعوا المناقشات الداخلية جانباً.

فالأعداء الخارجيون يغيرون عليكم من كل صوب، واجعلوا إنقاذ أهل الحق من السقوط والذلة من اهم واجباتكم الأخروية واولاها بالاهتمام وامتثلوا بما تأمركم به مئات الآيات

الكريمة والاحاديث الشريفة من التآخي والتعاون واستمسكوا بكل مشاعركم بعرى الاتفاق والوفاق مع إخوانكم في الدين ونهج الحق المبين بأشد مما يستمسك به الدنيويون الغافلون واحذروا دائماً من الوقوع في شباك الاختلاف ولا يقولن أحدكم : (سأصرف وقتي الثمين في قراءة الأوراد والأذكار والتأمل بدلاً من أن أصرفه في مثل هذه الأمور الجزئية) فينسحب من الميدان ويصبح وسيلة توهين الاتفاق والاتحاد وسبباً في إضعاف الجماعة المسلمة ذلك لأن المسائل التي تظنونها جزئية وبسيطة ربما هي على جانب عظيم من الأهمية في هذا الجهاد المعنوي فكما أن مرابطة جندي في ثغر من الثغور الإسلامية ضمن شرائط خاصة مهمة لساعة من الوقت قد تكون بمثابة سنة من العبادة فإن يومك الثمين هذا الذي تصرفه في مسألة جزئية من مسائل الجهاد المعنوي ولا سيما في هذا الوقت العصيب الذي غلب أهل الحق فيه على أمرهم ، أقول إن يومك هذا ربما يأخذ حكم ساعة من مرابطة ذلك الجندي أي يكون ثوابه عظيماً بل ربما يكون يومك هذا كألف يوم . إذ ما دام العمل لوجه الله وفي سبيله فلا ينظر إلى صغره وكبره ولا إلى سموه وتفاهته فالذرة في سبيل رضاه سبحانه مع الإخلاص تصبح نجمة متلألئة فلا تؤخذ ماهية الوسيلة بنظر الاعتبار وإنما العبرة في النتيجة والغاية وحيث أنها رضى الله سبحانه وأن أساس العمل هو الإخلاص فلن تكون تلك المسألة إذن صغيرة، بل هي عظيمة وكبيرة.

السبب السابع:

إن اختلاف أهل الحق ومنافستهم ليس شيئاً ناشئاً من الغيرة فيما بينهم ولا من الحرص على حطام الدنيا، كما، اتفاق الدنيويين الغافلين ليس من كرامتهم وشهامتهم. بل إن أهل الحقيقة لم يتمكنوا من الحفاظ على الفضائل والمكارم التي يحصلون عليها من تمسكهم بالحقيقة ولم يستطيعوا البقاء والثبات ضمن منافسة شريفة نزيهة في سبيل الحق بتسلل القاصرين منهم في هذا الميدان، لذا فقد أساءوا — وبعض الإساءة – إلى تلك الصفات المحمودة، وسقطوا فأضروا أنفسهم وجماعة المسلمين أيما ضرر.

أما الضالون والغافلون فنظراً لفقدانهم المروءة والحمية لعجزهم ولذلتهم فقد مدوا أيديهم واتحدوا اتحاداً صادقاً مع أناس أياً كانوا، بل مع الدنيئين الوضيعين من الناس أصدقاءهم

ورؤساءهم الذين يأتمرون بأوامرهم إلى حد العبادة لأجلها، لذا اتفقوا مع من يشاركهم في الأمر اتفاقاً جاداً واجتمعوا مع من يجتمع حول تلك المنافع بأي شكل من أشكال الاجتماع، فبلغوا إلى ما يصبون إليه من جراء هذا الجد والحزم في الأمر.

فيا أهل الحق وأصحاب الحقيقة ويا من ابتليتم ببلوى الاختلاف! لقد ضيعتم الإخلاص في هذا الظرف العصيب ولم تجعلوا رضى الله غاية مسعاكم فمهدتم السبل لإسقاط أهل الحق مغلوبين على أمرهم وجرعتموهم مرارة الذل والهوان.

اعلموا أنه ما ينبغي أن يكون حسد ولا منافسة ولا غيرة في أمور الدنيا والآخرة، فليس فيها في نظر الحقيقة أمثال هذه الأمور. ذلك لأن منشأ الحسد والمنافسة إنما هو من تطاول الأيدي الكثيرة إلى طعام واحد وحصر الأنظار إلى مقام واحد وشهية المعدات الكثيرة إلى طعام واحد، فتؤول المنافسة والمسابقة والمزاحمة إلى الغبطة والجسد. ولما كانت الدنيا ضيقة ومؤقتة ولا تشبع رغبات الإنسان ومطالبيه الكثيرة، وحيث أن هناك الكثيرون يتهالكون على شيء وحد، فالنتيجة إذن السقوط في هاوية الحسد والمنافسة. أما في الآخرة الفسيحة فلكل مؤمن جنة عرضها السموات والأرض تمتد إلى مسافة خمسمائة سنة، ولكل منهم سبعون ألفاً من الحور والقصور، فلا موجب هناك إذن إلى الحسد والمنافسة قط، فيدلنا هذا على أنه لا حسد ولا مشاحنة في أعمال صالحة تفضي إلى الآخرة، أي لا مجال للمنافسة والتحاسد فيها، فمن تحاسد فهو لا شك مراء أي أنه يتحرى مغانم دنيوية تحت ستار الدين ويبحث عن منافع باسم العمل الصالح. أو أنه جاهل صادق لا يعلم أين وجهة الأعمال الصالحة وأساسها، فيتهم سعة الرحمة الإلهية كأنها لا تسعه، ويبدأ بالحسد والمنافسة والمزاحمة منطوياً في قرارة نفسه على نوع من العداء مع أولياء الله الصالحين الصادقين.

وسأذكر هنا حادثة تؤيد هذه الحقيقة: كان أحد أصدقائنا السابقين يحمل في قلبه ضغينة وعداء نحو شخص معين. وعندما أثني على هذا الشخص أمامه في مجلس وقبل في حقه: أنه رجل صالح، أنه ولي من أولياء الله، رأينا أن هذا الكلام لم ير فيه شيئاً فلم يبد ضيقاً من الثناء على عدوه.

ولكن عندما قال أحدهم: (أنه قوي وشجاع) رأيناه قد انتفض عرق الحسد والغيرة لديه. فقلنا له: (يا هذا إن مرتبة الولاية والتقوى من أعظم المراتب فلا يقاس عليها شيء آخر، فأين الثرى من الثريا ؟! لقد شاهدنا أن ذكر هذه المرتبة لم يحرك فيك ساكناً بينما ذكر القوة العضلية التي تملكها حتى الثيران والشجاعة التي تملكها حتى السباع قد أثار فيك نوازع الحسد)

أجاب: (لقد استهدفنا كلانا هدفاً ومقاماً معيناً في هذه الدنيا، فالقوة والشجاعة وأمثالهما هي من وسائل الوصول إلى ما استهدفناه من مرتبة دنيوية، فلأجل هذا شعرت بدواعي المنافسة والحسد. أما منازل الآخرة مراتبها فلا تحد بحدود، وربما يصبح هناك من كان عدواً لي أحب صديق وأعزه).

فيا أهل الحقيقة والطريقة! إن خدمة الحق ليس شيئاً هيناً، بل هو أشبه ما يكون بحمل كنز عظيم ثقيل والقيام بالمحافظة عليه، فالذين يحملون ذلك الكنز على أكتافهم يستبشرون بأيادي الأقوياء الممتدة إليهم بالعون والمساعدة ويفرحون بها أكثر. فالواجب يحتم أن يستقبل أولئك المقبلون بمحبة خالصة، وأن ينظر إلى قوتهم وتأثيرهم ومعاونتهم أكثر من ذواتهم وأن يتلقوا بالافتخار اللائق بهم، فهم أخوة حقيقيون ومؤازرون مضحّون. ولئن كان الواجب يحتم هذا، فلم إذن ينظر إليهم نظر الحسد ناهيك عن المنافسة الغيرة، حتى يفسد الإخلاص نتيجة هذا الحالة، وتكون أعمالكم ومهمتكم موضع تهم الضالين. فيضعونكم في مستوى أقل منكم واوطأ من مسلككم بكثير، بل يقرنونكم مع أولئك الذين يأكلون الدنيا بالدين ويضمنون عيشهم تحت ستار الحقيقة ويجعلونكم من المتنافسين الحريصين على حطام الدنيا، وأمثالها من الاتهامات الظالمة ؟!

إن العلاج الوحيد لهذا المرض هو: اتهام المرء نفسه، والانحياز إلى جهة رفيقه في نهج الحق الذي إزاءه وعدم الانحراف عن دستور الإنصاف وابتغاء الحق، الذي ارتضاه علماء فن الأدب والمناظرة والذي يتضمن : " إذا أردا المرء أن يظهر الحق على لسانه دون غيره – في مناظرة معينة – وانسر لذلك واطمأن أن يكون خصمه على باطل وخطأ فهو ظالم غير منصف" فضلاً عن أنه يتضرر نتيجة ذلك لأنه لم يتعلم شيئاً جديداً – من تلك المناظرة –

بظهور الحق على لسانه ، بل قد يسوقه ذلك إلى الغرور فيضرر، بينما إذا ظهر الحق على لسان خصمه فلا يضره شيء ولا يبعث فيه الغرور بل ينتفع بتعلمه شيئاً جديداً .

أي إن طالب الحق المنصف يسخط نفسه لأجل الحق، وإذا ما رأى الحق لدى خصمه رضي به وارتاح إليه.

فلو اتخذ أهل الدين والحقيقة والطريقة والعلم هذا الدستور دليلاً لهم في حياتهم وعملهم فإنهم يظفرون بالإخلاص بإذن الله ويفلحون في أعمالهم الأخروية، وينجون برحمة منه سبحانه وفضله من هذه المصيبة الكبرى التي ألمت بهم وأحاطتهم من كل جانب.

(سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إن أنت العليم الحكيم)